

مجلة زبان و ادبیات عربی (مجلة ادبیات و علوم انسانی سابق) (علمی - پژوهشی)، شماره یازدهم - پاییز و زمستان ۱۳۹۳

الدكتور على اصغر حبيبي (استاذ مساعد في قسم اللغة و الأدب العربي جامعه زابل، زابل، ايران، الكاتب المسؤول)

الدكتور عبدالحميد احمدى (استاذ مساعد في قسم اللغة و الأدب العربي جامعه زابل، زابل، ايران)

ثنائيه التوظيف لقناع المسيح(ع) في شعر السياب

الملخص

إن من أهم ما يميّز الشعر المعاصر، هو استعراض الموضوعات السياسيّة والاجتماعيّة المتنوّعة التي تحيط بالشاعر بطريقة فنيّة غير مباشره، ممزوجة بالنزعات الذاتيه والجوانب الغنائيّه. فالشاعر المعاصر يقوم على أساس التزاماته الشعريّه بالإفاده من الأشكال الفنيّه المتنوّعه كالرمز، واستدعاء الشخصيات التراثيه. وجدير بالقول إن تقنيّه القناع هي من أجمل الطرق الفنيّه للتعبير عن أفكار الشاعر بكلّ موضوعيه. فالسياب، كغيره من شعراء هذا الاتجاه، يؤكّد في مجال توظيفه لهذه التقنيّه على ثلاثه أصول: الصلب، والتضحيه، والبعث، والنشور، وذلك من خلال التماهي بشخصيه المسيح، كي يصوّر للمتلقي مدى الآلام التي تحملها في سبيل إيقاظ شعبه، ويستعرض به نتائج كفاحه وتضحياته. وقد قام الشاعر في سبيل الوصول إلى غايته باستخدام تقنيّه قناع المسيح بصورتين مختلفتين: وهو في الأولى، والتي تتجلى فيها مظاهر الأمل والتفاؤل بالغد المشرق، يتحلّى بالمعاني الأصيله التي تضمّنها رمز المسيح، أي معنى الفداء والبعث بعد الموت، ولكن في الصوره الثانيه تنقلب المعاني بطريقه فنيّه وتتعارض مع المضمون الرئيس المستنبط من أسطوره المسيح؛ وهي الشعور بخيبه الأمل من التغلب على المحن الفرديه، والمشاكل الاجتماعيه، والسياسيه، فتتحول عنده أسطوره الانتصار إلى رمز الخساره والفشل. والغايه من هذا التوظيف العكسي تمكين الشاعر من التعبير عن تجربته الشعريّه المعاصره والتي هي نتيجه التناقضات الخارجيه في المجتمع والأزمات النفسيه وذلك على المستوى الفردي والعام.

الكلمات الدليليه: السياب، المسيح، القناع، الرمز، التماهي.

تاريخ دريافت: ۱۳۹۲/۱۱/۲۵ تاريخ پذيرش: ۱۳۹۳/۱۰/۳۰

elyasiniahmadi@yahoo.com

amin_habiby@yahoo.com

پست الكترونيكي:

المقدمه

يعدّ التطرّق إلى الموضوعات التراثية بمثابة اللجوء إلى الينابيع الأولى للحياه البشريه، الأمر الذي يكشف بوضوح عن التعلّقات القلبيه بأيام الفطره والنّقاء لدى الإنسان. فالتزود من التراث إلى جانب الثقافه المعاصره وعقد الأواصر بينهما ضروري لفهم مشكلات الإنسان المعاصر. فالشاعر المعاصر يرجع إلى الشخصيات التراثيه، ويتقنّع بها، ويسعى جاهدا كي يبين عن مشاعره وأفكاره وأمنيّاته من خلال ذاك القناع الذي اتخذّه لنفسه. وفي هذا المجال تعدّ الشخصيات الدينيه أكثر تجليا في النصوص الشعريه لما لها من دلالات قيمه تساعد على التعبير عن تجربته الشاعر المعاصر بكل مرونة.

فالسّياح كشاعر رائد اعتنى أيّما اعتناء بالشخصيات الدينيه، ولاسيما شخصيه المسيح، فلذا نراه كثيراً ما يتقنّع بقناعه باستلهام شخصيته والتماهي بها، ويتصور نفسه المسيح الذي وإن ضحى بنفسه في سبيل محاربه الظلم والفساد إلا أنّه استطاع أن يخلّد ذكره في ذاكره الناس. فالشاعر تمكّن من خلال هذه التقنيّه أن يتمنّع بحياه خالده بدأت بموته.

القناع لغه واصطلاحا

القناع في اللغه هو ما يستتر به، أو هو وجه مستعار من ورق مقوى أو نسيج أو جلد في شكل حيوان أو إنسان يثبت على الوجه لإخفاء الملامح الأساسيّه لدى الإنسان. (داد، ١٣٨٠هـ-ش: ١٩٠) وفي الاصطلاح يعدّ القناع من المصطلحات المتعلقه بالمسرح، حيث يضرب بجذوره في القدم، ولا يزال يستخدم حتى يومنا هذا. ثم ارتبط هذا المصطلح بالشخصيه الدراميه. والأصل اللاتيني للمصطلح هو "persona". (فتحي، ١٩٨٦م: ٢٧٩) «وهو تاريخياً وسيله دراميه استخدمت في رقص القبائل البدائيه، ثم انتقلت إلى الاحتفالات الدينيه، فالمسرح الإغريقي وسواه» (الموسى، ٢٠٠٣م: ٢٠٩) فالقناع لم يقتصر على الطقوس الدينيه والتمثيل والمسرح، بل تعداها إلى علم النفس، وبدا ذلك واضحا عند النفساني "يونغ" (Carl Gostav Iung)، حيث وظّف هذا المصطلح في الحديث عن النماذج العليا واللاشعور الجمعي؛ وأخيراً بلغ هذا المصطلح الذروه الفنيّه في عالم الأدب وتجلّى في كثير من النتاجات الأدبيه.

مصدر القناع في الأدب

يعدّ التعرف على مصدر القناع من القضايا الرئيسية لدراسه هذه التقنيه التي أخذت تتغير على مرّ العصور؛ فقد كان للتراث والتاريخ والأسطوره أكبر نصيب في هذا المجال (مصادر القناع). وقد أجمع النقاد المعاصرون أن أكثر الأشعار توفيقاً في عمله توظيف أقنعه الشخصيات الأدبيه، والتاريخيه، والدينيه، والصوفيه، والأسطوريه هي تلك الأشعار التي اعتمدت على الأسطوره والنماذج القديمه. يقول إحسان عباس: ويمثل القناع خلق أسطوره تاريخيه لا تاريخاً حقيقياً؛ فهو من هذه الناحيه تعبير عن التضايق من التاريخ الحقيقي، بخلق بديل له "الأسطوره". (عباس، ١٩٧٨م: ١٥٥)

ولكن من الواجب في هذا المضمّار أن لا يقتصر شعر القناع على الجذور القديمه، كما يصرّح بذلك عدد من النقاد المعاصرين، حيث جعلوا الاعتماد على الشخصيات التراثيه أصل أصيل في عمله توظيف الأقنعه. (كندی، ٢٠٠٣م: ٨٨) ولكن القناع سواء كان تاريخياً قديماً، أو أسطورياً، أو معاصراً فالمهم في هذا المجال هو حسن اختيار الشخصيات، والبراعه في التفاعل البناء معها، والإفاده من التماهي بها في التعبير عن التجربه الشعريه الكامنه في أعماق النفس الشاعره. وبناءً على هذا فإنّ أسطوريّه القناع وقدمه لا يضمنان أيّ نجاح للشاعر في بيان تجربته، ولا يبرّران أيّ تفريط وتقصير له في هذا الجانب. (فتوح أحمد، ١٩٧٧م: ١٦٥) فالطاقات التعبيريّه التي توفّرهما الرموز والأقنعه للشاعر مهمه جداً، لأنّها تمكّنه من الإبانه عمّا يختلج في نفسه من أفكار ساميه ومعانٍ راقيه تكوّنت من جرّاء تجارب مرّة مرّت على الشاعر، ورفعت من مستوى فهمه للحياه وظروفها.

الصله بين القناع والرمز

تتسع دائره التخمين والدلاله الظنيّه في عمله استدعاء الشخصيات التراثيه والأسطوريه، وذلك بسبب ما تخلقه هذه الشخصيات من احتمالات واستنتاجات حدسيه. فتوظيف القناع تتشابه بنيه القصيده، وتمتزج أصواتها؛ ففي مثل هذه الحاله تنهياً الأرضيه للشاعر كي يعبر عن تجربته بأسلوب رمزيّ، فيحصل بسببه التلاقي بين الرمز والقناع، ويصبح الرمز من الأساليب الراقيه والأصيله في مجال الإفاده من القناع في التعبيرات الشعريه. ومن جانب آخر فالقناع ليس تصويراً رمزيّاً فحسب، بل هو رمز كليّ وميدان واسع في الدلاله على المفاهيم الشعريه المتنوعه. فالشاعر، بمجرد أن يبدع قناعاً، يقوم

بعملیه خلق لرمز جدید یعبر به عن معانیه بالتفاعل مع الجوانب المختلفه لمثل هذه الرموز. (کندی، ۲۰۰۳م: ۹۴-۹۵) فمن هذا المنطلق يرى النقاد الأدباء أن القناع رمزٌ يختاره الشاعر لإظهار رنات قلبه الخفيه؛ فثمة نداءان: نداء يطلقه الشاعر بصوته الشعري، ونداء يصدر من وحى الشخصيه التراثيه، فيتلاقح النداءان، ويتج عن ذلك شعرٌ رمزيٌّ موحٍ.

وعلى الرغم من وجود قواسم مشتركه بين فنّ القناع والرمز إلا أنه لا يمكن اعتبارهما شيئاً واحداً، لأنّ القناع رمز، والرمز أعم منه؛ فالقناع رمز يعتمد على الجوانب الدراميه، فيتميز بذلك عن الرمز الذي ينبع من اللاوعى الفردى. ومن جانب آخر فالقناع فنّ ناتج من اللاوعى الجمعى ولا يتفق إلا مع الرمز الجمعى. (عباسى، ۱۳۸۵هـ-ش: ۱۶۲) وهو بسبب ما يتمتع به من الانسياب والمرونه فى عمليه الانتقال يمكن الشاعر أن يرتقى برؤياه وتجربته من الفرديه المقيده المحدوده إلى المستوى الإنسانى الشامل. (النيهوم، ۲۰۰۲م: ۲۵)

الضمير فى شعر القناع

يعدّ التوظيف الخاص للضمير من القضايا المهمه المتعلقه بتقنيه القناع، حيث يتمّ الاعتماد غالباً فى مثل هذا الفنّ على ضمير المتكلم، فيتحقّق بذلك الأتّحاد التامّ بين الشاعر والشخصيه المتقنّع بها، إلا أن الشاعر قد يحدد عن هذا النمط أحياناً، ويركن إلى أسلوب الالتفات البلاغى باستعمال الضمائر الأخرى. فكثيراً ما نجد أنّ الشاعر يدخل فى حوار داخلى مع نفسه معتمداً ضمير الغائب أو ضمير المخاطب، ليوضّح بعض الجوانب الداخليه التى لا تظهر إلا عبر هذا "الاستبطان". (کندى، ۲۰۰۳م: ۳۷۱) ولا يمكن أن تظهر هذه النواحي الوجدانيه إلا عن طريق سير أغوارها والتماس أدقّ التعبيرات فى الدلاله عليها.

ويرى الدكتور عشرينى زايد أنه من الضرورى فى أسلوب القناع أن تتنوع الضمائر، ويؤكد على أن توظيف الضمائر الأخرى يجعل قصيده القناع أكثر موضوعيه، لأن ضمير المتكلم لا ينفصل عن الشخصيه المعاصره وأحاسيسها وعواطفها، فتبتعد القصيده عن موضوعيتها. (عشرينى زايد، ۲۰۰۶م: ۲۱۲-۲۱۳) ولكن عندما يتمّ التعامل مع الضمائر الأخرى تنفصل شخصيه الشاعر وتستقرّ فى مكانها المناسب، فتتمكّن الشخصيه من حمل دلالات خاصه، تجعلها قادره أن تقوم بدورها بعيداً عن

عواطف الشاعر وأحاسيسه. والحقيقه أن هذا الأمر ليس إلا استنطاق الشخصيه لبيان ما يدور من عواطف وأحاسيس في خلد الشاعر ونفسه. (كندی، ۲۰۰۳م: ۹۰-۹۱)

متطلبات القناع

يجب على الشاعر المعاصر أن يراعى أسس التقنّع في توظيف الشخصيات كي لا يتورط في الزلّات التي كثيرا ما تلوّث بها هذه التقنيه الحديثه، ومن ثمّ يتمكن من التوفيق بين الشخصيه التراثيه وتجربته الشعريه المعاصره، ويتابع خطاه في سبيل الوصول إلى الموضوعيه بعيدا عن الغنائيه المعبره عن العواطف المنجليه من الذاتيه المتفرده. فالشاعر الذي يسعى لتوظيف مثل هذه التقنيه، أولاً: عليه أن يلمّ بالتاريخ، ويستوعبه استيعابا تاما، يستلهم أحداثه الإيجابيه، وثانياً: يستدعي في شعره الشخصيات التراثيه المتميزه والتي تنسجم مع القضايا العصريه، وتستوجب شموليه النواحي الإنسانيه. (على، ۱۹۹۵م: ۱۸) و ثالثاً: في عمليه التقنّع يجب التركيز على الشخصيه التراثيه والتفتيش عن خصائصها المتميزه وأوصافها البارزه، كي يتمّ التمكن من إقامه علاقته وطيده بين الشخصيه التراثيه والأفكار والمعاني التي يريد الشاعر الإفصاح عنها من خلال توظيفه لهذه الأداة المعبره. وفي هذا الصدد يجب الانتباه إلى النواحي الجديده التي يريد الشاعر أن يُحمّل بها الشخصيه التراثيه أو الأسطوريه، لأن بعض هذه الشخصيات بسبب فقدانها لخصائصها الدلاليه ليست بذاك المستوى حتى تتمكن من استيعاب موضوعات معاصره. (البياتي، ۱۹۹۳م: ۴۰)

المسيح في الشعر العربي المعاصر

إنّ شخصيه الأنبياء والرسل، لأجل ما تضمّنته من شحنات فنيه وأدبيه، هي من أكثر الشخصيات تناولا في الأدب العربي المعاصر وخاصه عند الشعراء التموزيين. (عشري زايد، ۲۰۰۶م: ۷۷) ويمكن الإشارة بأن شخصيه الأنبياء كالمسيح، وأدم، والخضر، ومحمد، وأيوب، وموسى من أكثر الشخصيات انتشارا في أدب هؤلاء الشعراء.

ومن جانب آخر فإن مفهوم الموت الفدائي عند الشعراء التموزيين وغيرهم من شعراء العصر الحديث يعني: الانتقال من العالم المتغير إلى العالم الساكن، أو الانتقال من عالم الزمان إلى عالم اللازمان؛ الأمر الذي يتجلّى في الشهاده والتضحيه. ومن هذا المنطلق فإن الشخص إذا ضحّى بنفسه في سبيل غايه ساميه فهو يتحد مع المسيح وفيونوس (Venus)^(۱) وتمّوز^(۲)، وهذا الأتحاد يضمن له البعث

والبقاء. (الموسى، ١٩٩١م: ٨١-٨٢) وتجدر الإشارة هنا أن شخصية المسيح، بسبب ما تتمتع به من شحنات ودلالات شعورية متألفه مع تجربته الشاعر المعاصر، نالت أكثر اهتماما عند الشعراء التّموزيين بالنسبة إلى الشخصيات التراثية الأخرى، بحيث شكّلت هذه الشخصية الإطار العام لشعرهم فى حديثهم عن التضحية والفداء. (الضاوى، ١٣٨٤هـ ش: ٤٢)

فقناع المسيح، كما عبّر عنه "يونغ"، رمز يصوّر الأنماط الأولى ويقوم مقام الحكيم والمنجى والمخلص والفدائي؛ فهو متجذر فى اللاوعى الإنسانى. (الجيوسى، ٢٠٠١م: ٨١٣) وعلى هذا الأساس، فالشاعر التّموزى المعاصر والمكافح يرى نفسه المسيح الذى تجرّع الهموم والأحزان، وتحمل الصعاب والأكدار، وضخى بنفسه فى سبيل تحرير شعبه المستضام، كى يعيد لهم الحياه من جديد بسلام ووثام؛ فهو المسيح المعاصر الذى يثور على الواقع المؤسف للشعب العربى وينادى بالتعديلات والإصلاحات.

المسيح فى شعر السياب

فلسياب، كرائد من روّاد المدرسه التّموزيه فى الإفاده من الشخصيات التراثيه، لا يرى رمزا أرقى وأكثر فائده من شخصيه المسيح فى بيان تجربته الشعريه المعاصره. (الضاوى، ١٣٨٤هـ ش: ٣٢) فهو بتأثير من المبادئ والأفكار المسيحيه والتي تدعو إلى التضحية والفداء والموت فى سبيل حياه الآخرين، ركّز على شخصيه المسيح فى نتاجاته الأدبيه. فالشاعر فى المرحله التّموزيه من تجربته الشعريه يغيّر نظرتة للموت، ويعتمد على موت التضحية فى تعبيراته الشعريه، ويراه مبدأ حياه جديده، ويوظّف فى سبيل ذلك شخصيه المسيح وما شابها كفينوس وتموز(بلاطه، ١٩٧١م: ٩٩ وعشرى زايد، ٢٠٠٦م: ٢٣٣). فللسياب فى توظيف شخصيه المسيح والتماهى بها مواقف مشتركة مع غيره من الشعراء المعاصرين ولاسيما التّموزيين. فالمسيح عنده رمز للكفاح والجهاد والتضحية فى سبيل تحرير قومه والإنسانيه جمعاء. فهو يعتقد أن التعبير عمّا يختلج فى نفسه من قضايا إنسانيه عامّه إلى جانب القضايا الفرديه الذاتيه من أهم المبادئ التي يجب أن يعتمد عليها فى نتاجاته الشعريه؛ فلذا نراه فى شعره يتماهى بشخصيه المسيح الذى ضخى بنفسه فى سبيل الإنسانيه ومبادئها.

ولكن مع وجود قواسم مشتركة بين الشاعر وغيره من الشعراء في معالجتهم لمضمون التضحية إلا أن هناك فوارق واضحة تميّزه عن الآخرين، وهذا أمر طبيعي لا يؤدي إلى وجود تناقض في صلب الموضوع. فالبياتي مثلا يرى التماهي بتضحية المسيح في النفي القسري والتشريد، وأدونيس في الهجره والنزوح الاختياري عن الوطن، والسياب في الفقر والغربة. فجميع هؤلاء الشعراء يرون الموت سببا لتحرّر من الطيش والنزق، ومدعاه للوصول إلى الحرية، وسببا لميلاد جديد؛ إلا أن البياتي وأدونيس يركّزان على الامتزاج بين الموت الفردي الذاتي والموت الجماعي، ويجعلان من شعرهما مظهرا لتجليات أفكارهما الثوروييه وتصوّراتهما السياسييه والاجتماعييه؛ ولكن السياب، وتحت تأثير من الضغوط النفسيه ومشاكله الخاصه (المرض والفقر)، وعلى الرغم من تماثيه في بدايه أمره مع أدونيس والبياتي في التركيز على الامتزاج بين الموتين، لكنّه انحاز في نهايه حياته إلى التركيز على الموت الفردي الذاتي في نتاجاته واستسلم لذلك (أرناؤوط، ٢٠٠٤م: ١٠٧-١٠٨).

فالإفاده من فكره بعث المسيح في شعر السياب لا تعني أنّه في شعره ترفع عن معنى الخيبه واليأس والتشاؤم، بل أحيانا نراه قانطا آيسا، وذلك بسبب الظروف الخاصه التي خيّمّت على حياته وحياه مجتمعه، مما أدى إلى التوظيف العكسي لشخصيه المسيح في شعره؛ فالمسيح هنا لم يعد يضحى بنفسه، وإن ضحى فإنّ تضحيته لا تثمر ولا تغني من جوع.

فبناء على ما تقدم فإنّ هذا المقال يستعرض التوظيف المتوازي والعكسي لقناع المسيح في شعر السياب الذي يعدّ من رواد الشعراء التموزيين في الأدب العربي.

التوظيف المتوازي لقناع المسيح في شعر السياب

ومن الأساليب التي يعتمد عليها الشعراء في تعبيراتهم الشعريه، التوظيف المتوازي للشخصيه التراثيه، بحيث تتوافق دلالتها مع تجربه الشاعر المعاصر، كتوظيف ابن نوح للتعبير عن الرفض والتمرد، والسندباد في التعبير عن المغامره، والارتياح، وحب السباحه، وتوظيف زرقاء اليمامه للتعبير عن القدره على التنبؤ والكشف. (عشري زايد، ٢٠٠٦: ٢٠٣) ويهيمن هذه التوظيف المتوازي على تقنيه القناع في الشعر العربي المعاصر، فيستخدم الشاعر الحديث القديم للتعبير عن حاله أو تجربه معاصره مماثله (الموسى، ٢٠٠٣م: ٢١٢-٢١٣).

وإذا استعرضنا الشعر العربي المعاصر لوجدنا أن التعبير عن التضحية في سبيل إيقاظ الآخرين وإحيائهم من أهم الأسباب التي دعت الشاعر العربي المعاصر كي يوظف قناع المسيح في شعره توطيفا متوازيا أو عكسيا. فالتضحية تحافظ باستمرار على روح الطموح عند الإنسان والتطلع للمستقبل الزاهر، وتؤكد على أن المشقات والمحن ستعطي ثمارها عما قريب؛ فلذا نجد أن الشاعر المتألم المعاصر عندما يشعر أنه لن يتمكن من أن يموت كغيره من المناضلين في سبيل الحريه يصور نفسه عن طريق الأسطورة والرمز وكأنه وجود بنفسه، فيربط مصيره ومصير الشعب بمصير المسيح، ويرجو من خلال هذه التضحية المتسمه بطابع الشهاده أن يهيء الأرضيه لِتَحْرُرَ الإنسان. (بلاطه، ١٩٧١م: ٩٩)

فالسباب بتقنعه بشخصيه المسيح والتماهي فيها، وبالاعتماد على تجربته المعاصره المؤمنه بالتضحية والبعث يتصور نفسه وكأنه مسيح يجب عليه أن وجود بحياته في سبيل نهضه شعبه الفكرية، الشعب المكابد البئيس الذي فرضَ عليه أنواع من التخلف؛ ومن جانب آخر فكأنَّ القدر استجاب لرغبته فجاء يوم وفاته متزامنا مع يوم ميلاد المسيح ليكون ذلك دليلا على أنه نال الخلود بعد وفاته مثل المسيح، وأن سبيله سيستمر عند غيره من شعراء المستقبل الذين يقومون باستدعاء شخصيه المسيح في أشعارهم.

١-قناع المسيح وصلته بالقضايا الاجتماعيه والسياسيه

إن الغايه الرئيسه من توظيف القناع واستدعاء الشخصيات التراثيه هي التعبير عن القضايا الموضوعيه والمجرده بأورنيك(Omek)التلويح وقالب الرمز. إذن فيمكن القول بأن موضوع الثوره والتطورات الاجتماعيه والسياسيه هي من أهم الموضوعات التي يستعرضها الشاعر من خلال تقنيه القناع.

فالسباب في قصيدته "رساله من المقبره"، تلك القصيده التي أنشدها للمناضلين الجزائريين، يصور نفسه وكأن المجاهدين يخاطبونه فيتقنع فيها بقناع المسيح القدائي حتى ينفث بموته روح الحياه في قلوب الجوع والمستضعفين من أبناء العروبه. وفي مجال التزامه، كئثر من الثوار، يرى نفسه فدائيا مخلصا يقدم عصاره روحه لأبناء وطنه المجاهدين، ويشاركهم آلامهم وأحزانهم ويصاحبهم في مسيرتهم:

عند بابي يصرخ الجائعون:

فی خبزک الیومی دفعء الدماء
فاملاً لنا، فی کل یوم وعاء
من لحمک الحی الذی نشتیهه
فنکفه الشمس فیه
وفیه طعم الهواء
وعند بابی یصرخ الأشقیاء:
اعصر لنا من مقلتیک الضیاء
فأننا مظلومون (السیاب، ۲۰۰۰م: ۲۱۴)

وقصیده النهر والموت للسیاب أيضاً مظهر من مظاهر فکرة الفداء والتضحیه والبعث، حیث تتماهی شخصیة المسیح بأسطوره تموز؛ وفی الحقیقه هذه القصیده من أهم القصائد التی یتجلی فیها الاتحاد بین أساطیر الإخصاب والتضحیه والفداء. (بیضون، ۱۹۹۱م: ۸۹) والسیاب فی هذه القصیده «یمزج الواقع بالحلم کی یرر الخیبه التی بدأ یحسها فی عالم السیاسه، حیث بدأ له العالم حزیناً، لا یرى فیه غیر صورہ الکآبه والقهر. وهو هنا یوحد بین الخاص والعام إذ یجعل من خیبته السیاسیه وحزنه وخوفه، حزناً عاماً شاملاً». (علی، ۱۹۸۴م: ۱۰۹) فهو لا یفکر فی شیء سوى الحزن علی مستقبل الناس والفداء لبعث روح الحیاه فی الآخرين، حیث یرى ذلك الانتصار الحقیقی.

فالقصیده هذه تعدّ مرآة تجربه السیاب المعاصره والتی انبثقت من الصراعات السیاسیه فی العراق. فهو، كشاعر ملتزم ومکافح فی زمن ینخض أبناء بلده تحت وطأه الحکم الجائر والمستبد، یتصور نفسه المسیح المخلص والمحرر الذی یأتم به أبناء وطنه فی سبیل مکافحه المحن والمصائب التی حلت بهم؛ المسیح الذی التحق بصف الثوار المجاهدين وسیحدلده یدیه مصیر نفسه وشعبه:

أودّ لو عدوت أعصد مکافحین
أشد قبضتی ثم أصفع القدر
أودّ لو غرقت فی دمی إلی القرار
لأحمل العبء مع البشر

وأبعث الحیاه. إن موتی انتصار! (السیاب، ۲۰۰۰م: ۲۴۵)

فالدكتور على أبوغالي من خلال تمييزه بين الانتحار والفتداء، يعتبر أن موت السياب في هذه القصيدة عمل إيجابي وعرض قيم لتبيين فكره الإيثار والمطالبة بالحرية ويقول: «الشاعر لا يعنى الانتحار بأن يقذف نفسه في النهر تخلصاً من الحياة ومتاعبها، ولكنه يريد التضحية والفتداء والاستشهاد في المعركة، والفارق كبير بين الانتحار والشهادة، الأول عدم وسلبي، والموت الثاني طقسى وأسطورى، لأنه من أجل آخرين.» (أبوغالي، ٢٠٠٦م: ٨٣) فالسياب في قصيدته يتناول قضية الثوره على أوضاع وطنه المأساويه، سياسيه واجتماعيه، ويتفنع مره أخرى بقناع المسيح الذي يخاطب المجاهدين الثائرين من أعماق قبره ويناديهم بقوله: حذارى حذارى أن تياسوا من النصر والنشور وتضيّعوا ثمرات التضحية والسرور:

من قاع قبرى أصبح...

من عالم فى قاع قبرى أصبح:

"لا تياسوا من مولد ونشور!"... (السياب، ٢٠٠٠م: ٢١٣)

ثم من خلال اتحاده بسيزيف^(٣) (sisuphos) الأسطوره يواصل الشاعر التعبير عن تجربته الشعريه بالاعتماد على أنشوده البعث والإيمان بالمستقبل الزاهر لساكنى الكره الأرضيه؛ وعلى الرغم من شدة الأعباء التى يشعر بها سيزيف (مسؤوليه الثوره) إلا أنه يرى أن جميع الآلام والمصائب ما هى إلّا كالمخاض الذى يبشر بالميلاد:

وعند بابى يصرخ المخبرون:

"وعرّ هو المرقى إلى الجلجله"

والصخر، يا سيزيف، ما أثقله...

هذا مخاض الأرض لا تياسى

بشراك يا أجدات، حان النشور!

سيزيف ألقى عنه عبء الدهور (المصدر نفسه: ٢١٤-٢١٥)

فالسياب فى قصيدته "لوى مكينس" وفى نطاق الإفاده من التنوع التوظيفى لأساطير الموت والنشور (المسيح، تموز أو أدونيس) وللرفع من دراميه كلامه يؤكّد على تجلّد الحياه من خلال الموت، ويرى

الموت منتهى السعادة ومبدأ ميلاد جديد، ويعتقد أن موت الفداء في سبيل إنقاذ الأمه يعتبر بمثابة التخلّص من أقال صخره سيزيف القاصمه والتنعم بحياه جديده من خلال نفخ الروح في عروق جيل المستقبل؛ فلذا نراه يتمنى الموت في سبيل تحرير أبناء بلاده من مخالب الاستبداد والتخلف:

يا ليتنى مت إن السعيد

من أطرح العبء عن ظهره

وسار إلى قبره

ليولد من موته من جديد. (المصدر نفسه: ٣٥٨)

٢-قناع المسيح وصلبه في سبيل ميلاد الوطن

ومن المعاني التي استمدّها الشاعر من ثقافته المسيحية تصويرُ المسيح وهو يصلب؛ ومن الممكن القول: بأن قصيده "المسيح بعد الصلب" من أجمل القصائد فنيًا في الدلالة على تماهي الشاعر والاتحاد بالمسيح. فالسياب في هذه القصيده، وبالاعتماد على البنية السردية الدرامية، يستعرض بشكل بليغ امتزاج ذاتيه الشعر بموضوعيه الروايه والمسرح، ويوظف ضمير المتكلم للتعبير عن أحداث صلب مسيح العصر الحديث وصراعه مع يهوذا الإسخريوطي المعاصر. فالسياب في هذه القصيده وبالإفاده من البنية الدائريه للشعر يبدأ من حيث تنتهي القصة (إسماعيل، ١٩٨٨م: ٢٥٦ والحلاوي، ١٩٩٤م: ٢٧٨)، أي مشهد إنزال المسيح من على الصليب، ومن ثم يتابع سرده بالاعتماد على تقنيه الاسترجاع^(٤) (flash back)، فيقوم بشرح الأحداث قبل صلب المسيح وفق تسلسلها الزمني:

بعدما أنزلوني، سمعت الرياح

في نواح طويل تسف النجيل

والخطى وهي تنأى. إذن فالجراح

والصليب الذي سمروني عليه طوال الأصيل

لم تمتنى... (السياب، ٢٠٠٠م: ٢٤٥)

ثمّ يواصل قائلاً: بأنّ ما تحمّله من آلام يفوق بكثير مما تحمّله المسيح، فيُعلى بذلك من مستوى توضيحاته وتضحيات شعبه، ثمّ يؤكّد، من خلال إعاده صلبه بالنار، أن من الواجب على من يريد أن

یسلك سبیل الحریه و یفوز بمیلاد جدید أن یضحی بأكثر ممّا ضحی به المسیح؛ وبتعبیر أدق، علی المجتمع أن یجود بعدد كثير من أمثال المسیح، لتستوی غرسه الفكر الإنسانی المعاصر علی سوقها، و تعطى ثمارها؛ لأن التضحیه فی سبیل الحق، وإن كانت عند المادیين الجهله نهايه المطاف، فهی فی الحقیقه لیست موتا، بل هی الحیاه بعینها:

أعین البندقیات تأكل دربی

شرع تحلم النار فیها بصلبی

إن تكن من حديد و نار، فأحداق شعبی

من ضیاء السموات، من ذکریات وحبّ

تحمل العبء عنی فیندی صلیبی، ما أصغره

ذلک الموت، موتی، وما أكبره. (المصدر نفسه: ٢٤٧-٢٤٨)

فالشاعر فی هذه القصیده و من خلال التأكيد علی ثلاثیه الصلب، و التضحیه، و البعث بعد الموت، يتطّلع إلى تصویر مدى الآلام و الأحزان التي تجرّعها فی سبیل إيقاذ أمته و بثّ روح الحیاه فیها؛ فهو موقن أيما یقین بأنّ حیاته لن تنتهی بموته، بل سيعیش فی قلوب الكثيرين و أفکارهم و سلوكياتهم؛ فلذا نرى الشاعر فی هذه القصیده يتفاهل بمستقبل العراق، و یصورّ الشعب العراقي بأنه تنبّه من غفلته، و سلك الطريق الذي سلكه السیاب، أي طریق الكفاح و التضحیه. (عشری زاید، ٢٠٠٦م: ٢٣٢ و رجائی، ١٣٨١هـ ش: ١٠٨-١٠٩)

بعد أن سمّرونی و ألقیت عینی نحو المدینة

كدت لا أعرف السهل و السور و المقبره

كان شیء، مدى ما ترى العین

كالغابه المزهره

كان، فی كل مرمی، صلیب و أمّ حزینة

قدس الرب

هذا مخاض المدینة (السیاب، ٢٠٠٠م: ٢٤٨)

٣-قناع المسيح والتوالف مع الشخصيات الفدائية الأخرى (poly phony)

ومن الأساليب الفنية التي يعتمد عليها الشعراء المعاصرون في التعبير عن قضية الفداء والبعث هي إقامه علاقه التوحد بين المسيح وغيره من الشخصيات وخاصه الأسطوريه التي تتسم بنفس الطابع في التضحية والفداء. فالشاعر المعاصر ولاسيما التّموزي بالاعتماد على هذا الأسلوب لا يكتفى بشخصيه المسيح الفدائيه فقط، بل يسعى من خلال إقامه علاقات ملازمه بينها وبين غيرها من الشخصيات أن يوسّع من نطاق التجربه ويجعلها أكثر شموليه، فيوحد بين جميع هذه الشخصيات دون أدنى ملابسه وتفكك، فيتمّ بذلك تبادل الأدوار بين الأساطير واتجاهاتها، والشخصيات التاريخيه والدينيه ومواقفها. وهذه الظاهره الشعريه والفنيه هي التي صرّح بها جيمز فريزر بقوله: إن لوحه المسيح الشعريه والتي تركّز على قضيه الموت والبعث هي في الحقيقه نفس اللوحه التي تتعلق بالأساطير الشعريه المشابهه لها. (البطل، ١٩٨٢م: ١٥٤) وفي عمليه التوالف والتوحد بين شخصيه المسيح وغيرها من الشخصيات الأسطوريه والرمزيه يتطوّر الشعر ويكون أكثر شموليه وأشدّ دراميه.

فالسباب في قصيده "رؤيا عام ١٩٥٦" قام بتوظيف شخصيات أسطوريه ودينيه متعدده ترمز إلى قضيه الفداء والبعث، فهو يتصوّر نفسه المسيح أو تمّوز، ويتقنع بقناع بروميثيوس^(٥) (prometheus) الفدائي؛ وبذلك استطاع أن يوحد من خلال توظيف ضمير المتكلم بين تجربته الفدائيه وتجربه المسيح وتمّوز وبروميثيوس وغنيميدا (الراعي الإغريقي الشاب الذي وقع ربّ الأرباب في شراك حبّه فقام بختطفه)؛ والغايه من ذلك التعبير عن تجربته المعاصره:

أيها الصقر الإلهي الغريب
أيها المنقّض من أولمب في صمت المساء...

رافعا روحي - غنيميدا جريحا
صالبا عيني - تموزا، مسيحا،

أيها الصقر الإلهي ترفق

إن روحي تتمزق (السباب، ٢٠٠٠م: ٢٣٢)

فالسباب في قصيدته "مرحي غيلان" وفي نطاق تقنّعه بشخصيه المسيح مع الشخصيات الأسطوريه الأخرى يصوّر تمّوز إله الخصب وهو يحمل القمح، وبعل (إله الخصب عند الفينيقيين) يرافقه،

والشمس تبشّر بميلاد المسيح، وارتفاع أستار الظلمه. فالشاعر بالإضافه إلى هذه الأساطير يتنوع كذلك بقناع بويب (نهر بالقرب من جيکور قريه الشاعر) وفرا:

تموز عاد بكل سنبله تعابث كل ريح...

أنا بعل: أخطر في الجليل...

على المياه، أنت في الورقات روحى والثمار

والماء بالخرير، يصل حولى بالمحار

وأنا بويب أذوب في فرحى وأرقد في قرارى...

وأنا المسيح، أنا السلام

والنار تصرخ يا ورود تفتحي ولد الربيع

وأنا الفرات ... (المصدر نفسه: ١٨٥-١٨٦)

و يوظّف الشاعر توظيفاً إشارياً شخصيه تمّوز وفينوس (venus) بالاتّحاد مع شخصيه المسيح، كى يصوّر الميلاد الجديد بشكل أفضل؛ ويبدو ذلك فى مقاطع من الفقره الثانيه من القصيده، بحيث تترجّح كفه تمّوز فى توظيف الشاعر لها؛ فيعلن السياب من خلال هذا الاتّحاد أنّ دم الحياه سيجرى فى هيكل جيکور وتربتها، ويقترن المسيح وتمّوز بيوطوبيا الشاعر، ويسقون جيکور من دمائهم، كى تحيى من جديد، ويعمّها الفرح والنشاط؛ وكل ذلك عندما يقدم ربيع الحريه ويشعر قلب الشاعر بحراره الانبعاث:

قلبي الشمس إذا تنبض الشمس نورا

قلبي الأرض، تنبض قمحا، وزهرا، وماء نميرا

قلبي الماء، قلبي هو السنبل

موته البعث، يحيا بمن يأكل

فى العجين الذى يستدير

ويدحى كنهده صغير، كئدى الحياه (المصدر نفسه: ٢٤٦)

وإجمالاً يمكن القول: «بأن القناع تتجاذبه قوى ثلاث: المسيح، وتمّوز (أو أدونيس)، السياب. هو المسيح المصلوب الذى أنزل فى القبر مفتديا البشرية بنفسه، وهو تمّوز أو أدونيس الذى مزّق الخنزير

البرى جسده، فسقى التربه بدمائه حتى الارتواء، فانبعثت فيها الحياه المتألقه المتوهجه، وهو السياب شخصياً الذى يتوق إلى تحقيق الحياه الرغيده لنفسه «(الحلاوى، ١٩٩٤م: ٧٢).

٤-قناع المسيح والتناص فيما يتعلق بكلام المسيح فى العشاء الربانى

فالشاعر فى شعر القناع، بسبب ما يقيمه من علاقات بين الشخصيات التراثيه وأبعادها المعرفيه وبين تجربته الشعريه، لابد له من الاعتماد على أسلوب التناص (Interetxualite). فالتناص يتيح للشاعر التحرر من الغنائيه، والتطلع إلى الموضوعيه، والتوحيد بين الماضى والحال، الأمر الذى يؤدى إلى نوع من الدراميه الشعريه. التى هى الغايه من توظيف القناع. ومن جانب آخر فالتناص، بسبب إزالته للحدود بين النص الشعري المعاصر والقديم، يمكن الشاعر من تطويع هذه النصوص والوصول من خلاله إلى إنجاز جديد، أى إبداع نص جديد، بحيث تذوب النصوص القديمه فى نص الشاعر ويتمكن باستدعائه للشخصيات الأسطوريه والدينيه أن يفتح لنفسه فى التعبير عن تجربته الشعريه آفاقاً فسيحاً وجديده.

ومن القضايا المهمه فى شعر السياب والمتعلقه بتقمص شخصيه المسيح والتقمع بها هى إقامه علاقات تناصيه بين شعره وكلام المسيح، ولاسيما فى حفله العشاء الربانى، حيث قال لأتباعه فى آخر ليله من حياته: «خُذُوا كُلُوا، هَذَا هُوَ جَسَدِي. ٢٧ وَأَخَذَ كَأْسًا وَشَكَرَ وَنَاوَلَهُمْ وَقَالَ: "إِشْرَبُوا مِنْهَا كُلُّكُمْ. ٢٨ هَذَا هُوَ دَمِي، دَمُ الْعَهْدِ الَّذِي يُسْفِكُ مِنْ أَجْلِ أَنْاسٍ كَثِيرِينَ. لِعُفْرَانِ الْخَطَايَا. ٢٩ (إنجيل متى، إصحاح ٢٦، آيه ٢٧-٢٩)

ففى قصيده "مرثيه الآلهه" يوظف السياب بدايه رمز المسيح للدلاله على مشاعر الغربه والوحشه والانتكاسات النفسيه، ثم ما يلبث أن تتحول هذه الرموز إلى رؤى اجتماعيه مفعمه من تدفقات الحياه، تتحدى بقوه التصورات المسيطره على المجتمع البشرى، فتجتاز الحدود الفرديه والشؤون الشخصيه، وتتجه نحو المبادئ الإنسانيه العامه والمشاركه، وبذلك ينجح الشاعر فى تحقيق الغايه الأصليه من توظيف القناع، أى القضايا الموضوعيه:

دمى هذه الخمرالتى تشربونها

ولحمى هو الخبز الذى نال جائع (السياب، ٢٠٠٠م: ١٩٦)

عندما يتحدث الشاعر عن مظاهر الحياة التي عمّت يوطوبيتها يلجأ الشاعر إلى إقامة علاقه تناصيه بين حديثه وكلام المسيح في العشاء الرباني، ليستلهم من خلال ذلك معاني التضحيه والبعث، ويجدد الحياه ويتمكن من التماهي بشخصيه المسيح، فيصور نفسه رمزا للكفاح والثوره ضد الواقع المأساوي والمستنكر، فيجود بدمه كى تحيي الأرض، وتتجدد الحياه فيها، ويزداد الأبطال المكافحون، ويواصلوا مسيرته فى سبيل الخصب والتطور والبعث والنشور:

مت، كى يؤكل الخبز باسمى مت، لكى يزرعونى مع الموسم
كم حياه سأحيا: ففى كل حفرة، صرت مستقبلا، صرت بذره

صرت جيلا من الناس، فى كل قلب دمي. قطره منه أو بعض قطره. (المصدر نفسه: ٢٤٦)

وفى قصيده "جيكور والمدينه" يكرر الشاعر وبشيء من التعديل ما ذكره فى قصيده "مرثيه الآلهه" فيقيم علاقه تناصيه بين شعره والآيه الكريمة التى تقول: «يَكَاذُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَكُوْلَمُ تَمَسُّسُهُ نَارٌ» (نور/٣٥) ومن ثم يوظف كلام المسيح بشكل واضح ويتماهى بشخصيته للتعبير عن تجربته الشعريه:

مصايح لم يسرج الزيت فيها وتمسسه نار...

دمى ذلك الماء هل تشربونه

ولحمى هو الخبز لو تأكلونه (السياب، ٢٠٠٠م: ٢٢٦)

التوظيف العكسى لقناع المسيح فى شعر السياب

وهناك أسلوب آخر لتوظيف الشخصيه التراثيه يسمّى بالتوظيف العكسى (وهو أقل من التوظيف المتوازي)، ويتمثل فى توظيف الملامح التراثيه للشخصيه فى التعبير عن معانٍ تناقض المدلول التراثي للشخصيه. (عشرى زايد، ٢٠٠٦: ٢٠٣) ففى مثل هذا الأسلوب «يستخدم الشاعر القناع استخداما متعارضا لما هو معروف عنه، فيحورّ فى طبيعه الحدث القديم و يضيف إليه، ومنه مثلا-قناع السندباد فى قصيده "رحل النهار" فهو هنا-يُخفق فى هذه الرحله على غير عادته، للتعبير عن تمكن المرض فى حياه السياب وتجربته الشخصيه.» (الموسى، ٢٠٠٣م: ٢١٣) فيهدف الشاعر من استخدام هذا الأسلوب فى الغالب إلى توليد نوع من الإحساس العميق بالمفارقة بين المدلول التراثي للشخصيه والبعد المعاصر الذى يوظف الشخصيه للتعبير عنه. (عشرى زايد، ٢٠٠٦: ٢٠٣)

فالسّياب أحيانا بسبب بعض تجاربه المتعارضة مع فكره ميلاد المسيح من جديد، يوظّف رمز المسيح توظيفا عكسيا للتعبير عن أفكاره المعاصرة؛ فهذه الأفكار متذبذبة بين الذاتيه والموضوعيه تبعا لنفسيه الشاعر ونظرته إلى الحياه، ولكن الشعراء التّموزيين غير السّياب-الذى أكثر من اتّخاذ القناع العكسي لشخصيه المسيح أداه للتعبير عن تجربته الذاتيه وذلك بسبب ما مُنى به من مصائب كالمرض والضعف الجسمي والنفسي والفقر المالي- قاموا باستخدام مثل هذه التقنيه لبيان الأوضاع الاجتماعيه، والسياسيه، والقضايا الموضوعيه؛ والغايه من هذا التوظيف إثارة المخاطب كي يشعر بالتضاد والتناقض بين مدلول الأسطوره وتجاربه الشاعر المعاصره والتي تعدّ الغايه الرئيسه من التعبير الشعري. ففي مثل هذا التوظيف تتحوّل أسطوره الانتصار إلى رمز الخساره والفشل، وأسطوره العفاف تصير مثلاً للدعاه والخبث. (رجايي، ١٣٨١هـ-ش: ٥٣)

وعلى كل حال فهذا النوع من التوظيف لقضيه القناع يعتبر فنيًا ذا درجه عاليه من الأهميه، لأن القناع عاده يعتمد على الأسطوره في مفهومها العام؛ وفي مثل هذا النوع من التوظيف يندفع الشاعر إلى الاستلهام ويتخلى عن الاستدعاء، وتختفي معالم الأسطوره ويلجأ الشاعر إلى نوع من المعادل الموضوعي فتتجلى في مثل هذه التقنيه دياكتيكيه الإخفاء والإظهار، الإخفاء في التعبير العكسي والإظهار في الاستلهام من الأسطوره، الأمر الذي يرفع من مستوى الصراع الدرامي الشعري ويؤدى في النهايه إلى شعر متطور ومتمكن من نفس المتلقى.

١-قناع المسيح وخيبه الأمل من التغلب على المحن الفرديه

كثيرا ما يتعرض الشاعر لليأس من البعث بسبب الضغوط النفسيه والأمراض الجسميه. فالسياب في إحدى قصائده يصوّر نفسه تلويحيا وكأنه المسيح المصلوب الذي يخاطب الربّ ويشكو إليه أوضاعه المأساويه المتأزمه فيقول بلسان متمرد:

إلهي لماذا تخليت عني

وخيّبت ظني

وأدميت قلبي

وأدمعت عيني (السياب، ٢٠٠٠م: ٣٢٣)

قضى السياب بسبب مرضه العضال الأشهر الأخيره من حياته فى "المستشفى الأميرى" بالكويت؛
(المصدر نفسه: ٣٥٦) فقد كان هناك فى قمة اليأس لا يرى إلا مظاهر الموت والفناء، وأنّ تضحياته لن
تحقق أدنى ثمره أو نفع.

نفسى من الآمال خاويه

جرداء لا ماء ولا عشب

ما أرتجيه هو المحال وما

لا أرتجيه هو الذى يجب...

صلب المسيح فأى معجزه

تأتى؟...مولاي مشلول! فتحدجنى

عين الملاك: "وأى ملهوف

لا يشتكى لله محتته؟

إرجع لبيتك دون إبطاء"

فبأى آمال أعيش إذن ... (المصدر نفسه: ٣٦٥-٣٦٤)

وفى نهايه المطاف، وتحت وطأه المرض، وبعد سماع نداء ملك الموت انفصلت شخصيته عن
المسيح، ورفع عن وجهه القناع الفاشل. فالسياب بالاعتماد على تجربته الذاتيه وإقامه علاقته تناصيه بين
شعره وشعر الشاعر الفلسطينى المعاصر "توفيق صايغ"^(٦) يرى نفسه مريضاً مترباً كالميت لا يلبى نداءه
سوى عوى الذئاب فى القفار:

كسيح أنا اليوم كالميتين

أنادى فتعوى ذئاب الصدى فى القفار

"كسيح"

كسيح وما من مسيح" (المصدر نفسه: ٣٥٧)

ففى قصيده "غابه الظلام"، التى نظمها الشاعر فى الكويت فى نهايه عام ١٩٦٤م، يلجأ الشاعر
المريض والحزين إلى تضمين شعر "توفيق صايغ"، ويقوم بالتوظيف العكسى لشخصيه المسيح
ويستخدم صنعه الجناس اللاحق حيث يجانس بين "كسيح" و"مسيح"؛ ومن جانب آخر فالسياب فى

هذه القصيده، بالإضافة إلى توظيف شخصيه تمّوز، يمزج بين المسيح و"سندباد"، ويصوّر ولده "غيلان" وهو ينتظر رجوع أبيه. فالشاعر بالاعتماد على أسلوب الاستفهام الإنكاري الذي يتلائم مع الجو المغموّم يشير إلى أنه من المستحيل رجوع الأب والمسيح وسندباد، ومن ثمّ فالحياء من جديد غير ممكنه:

عيناى من سربرى الوحيد
تحديقان فى المدى البعيد
الليل وحش تطعانه، مع النجوم...
الليل خنزير الردى، العنيد...
ومقلتا غيلان تومضان بالحنين...
عيناى فى الظلام تسريان كالسفين
بأى حقل تحلمان؟ أيما نهر؟
بعوده الأب الكسيح من قراره الضريح؟
(أميت فيهتف المسيح
من بعد أن يزحزح الحجر
"هلم يا عازر"؟) (المصدر نفسه: ٣٦١-٣٦٢)

٢-قناع المسيح واليأس من البعث والتراجع عن مجابهة المشاكل الاجتماعيه والسياسيه والإنسانيه فالسياب، بالإضافة إلى الإفاده العكسيه من شخصيه المسيح للتعبير عن آلامه النفسيه وأفكاره الفرديه، يوظّف قناع المسيح المعكوس لإظهار البلبله السياسيه والأزمات الاجتماعيه التي حدقت بشعبه؛ فنراه فى قصيدته "غريب على الخليج" يصوّر نفسه مباشره ودون الإفاده من الأسلوب الأسطوري بأنّه المسيح المعاصر الذى حمل على عاتقه صليبه، حيث يبدو وحيدا وغريبا فى دوله الكويت، فيخاطب وطنه العراق بكلّ شوق وحماس قائلا:

الريح تصرخ بى: عراق
والموج يعول بى: عراق، عراق، ليس سوى عراق...

واحسرتاه متى أنام
فأحس أن على الوساده
من ليلك الصيفى طلا فيه عطرک يا عراق؟...
بين القرى المتهيبات خطاى والمدن الغربيه
غنيت تربتك الحبيبه

وحملتها فأنا المسيح يجر فى المنفى صليبه. (المصدر نفسه: ١٨٣-١٨١)

فلغه السياب فى هذه القصيده تحولت إلى أنشوده يرددها جميع المكافحين فى سبيل تحرير الوطن. فهى أنشوده تعرض للمتلقى قدوه بشريه من خلال تجربته شخصيه يعانى فيها بطل القصة من الصراع الشديد بينه وبين قوى الطبيعه. (جعفر، ١٩٩٩م: ٢٤) وفى المقطع الرابع من قصيده "العودة لجيكور" يعانى السياب كالمسيح من الصلب إلا أن تجربته تفوق غربه المسيح، فالسياب يتدبر فى أمر إنزاله من على الصليب ويسأل بأسلوب إنكارى:

من الذى يحمل عبء الصليب
فى ذلك الليل الطويل الرهيب
من الذى يبكى ومن يستجيب
للجائع العارى؟

من ينزل المصلوب عن لوحه؟

من يطرد العقبان عن جرحه؟

من يرفع الظلماء عن صبحه؟

ويبدل الأشواك بالغار؟ (السياب، ٢٠٠٠م: ٢٢٩)

فالشاعر فى هذه القصيده وفى قوله "من يطرد العقبان عن جرحه" يقيم تناصبا مع أسطوره بروميثيوس الذى حكم عليه الإله الأعظم أن تأكل العقبان كبده بتهمه سرقة النار وإعطائه للإنسان. والحقيقه أن بروميثيوس هو عدل المسيح/ الشاعر، الذى يتألم ويعانى من شدة الأحران وحده المشاكل. فينكر الشاعر من خلال توظيف الأسلوب الإنكارى وجود من يتحمل عبء الإصلاح الاجتماعى، والسياسى، ومحاربه الفقر والحرمان فى دوله مستبده لا ترى للشعب أى حق فى اختيار

مصيره والتطلع إلى الغد المشرق، فيرى الظلمه الخانقه مسدله بستارها على سماء الوطن، حيث لا يسعى الشعب ولا يجد لإزالتها و التغلب عليها، فيشعر بالوحده واليأس.

ثم يشتد بعد ذلك اليأس عند الشاعر فلا يرى في وطنه بغداد من يسانده؛ فيؤكد من غير فائده ومن خلال المونولوج (الحوار الداخلي) على طلباته ورغباته التي لا تجدى ولا تغنى من شيء، لأنه ليس إلا كالميت مصلوبا منذ زمن بعيد:

نزع ولا موت

نطق ولا صوت

طلق ولا ميلاد

من يصلب الشاعر في بغداد؟

من يشتري كفيه أو مقلتيه؟

من يجعل الإكليل شوكا عليه؟ (المصدر نفسه: ٢٣٠-٢٢٩)

وكذلك الحال في قصيده "مدينه السندباد" حيث الظلمه واليأس ومظاهر الموت والفناء تخيم على جو القصيده؛ فالمسيح منذ البدايه يستسلم لليأس ويخضع له. فهذه القصيده تُسَهِّلُ بنداؤ شخص من تحت ركام قبره، وتذكرنا بنفس التصوير الشعري الذي رسمه السياب في قصيدته الأخرى ولكن الفارق هو أن المسيح في تلك القصيده كلّه أمل ينظر إلى الموت على أنه بدايه حياه حقيقيه ومدعاه بعث ونشور؛ ولكنه في هذه القصيده يرى أن رقوده في القبر نهايه كل شيء. فهذا النداء في الواقع نداء الشاعر/المسيح/تمّوز الذي يمثل صوت الشعب العراقي في إطار رمزي:

جوعان في القبر بلا غداء

عريان في الثلج بلا رداء...

صرخت في الشتاء: ...

من أيقظ "العازر" من رقاده الطويل

ليعرف الصباح والأصيل... (المصدر نفسه: ٢٤٨-٢٤٩)

فالمسيح الذي أخذ لنفسه أبعادا ناسوتيه يمتزج بتمّوز، ويلتمس من المطر بلسان تمّوز الضعيف والمتألم المجروح أن ينزل عليه كي ينهي هذه المأساه، ويبعث حياه جديده:

أفض يا مطر
مضاجع العظام والتلوج والهباء
مضاجع الحجر
وأثبت البذور لتفتح الزهر
وأحرق البيادر العقيم بالبروق
وفجر العروق... (المصدر نفسه: ٢٤٨)

« ولكن هذا المطر الذي ملأ الأرض لم يكن ليمنح الخصب ويحيى بياسها، دم ودمار وعيون موتى ترقب السماء وخراب وألم، حتى ليتمنى أهل المدينة أن تعود حالهم إلى ما كانت عليه قبل ذلك.» (حداد، ١٩٩٨م: ١٢٩-١٣٠) لكن الشاعر بإدخال حرف "لو" يؤكد على أن هذا أمل لا طائل من وراءه.

نوڈ لونام من جدید
نوڈ لونموت من جدید
فنومنا براعم الحياه
وموتنا يخبيء الحياه (السياب، ٢٠٠٠م: ٢٤٩)

ثم يستعرض الشاعر حاله الانحطاط والتخلف التي أحاطت بالعرب وذلك عن طريق مزج شخصيه المسيح/السياب بأسطوره تموز، فيرى الموت في الشوارع، ويشاهد العقم في المزارع، ويرى أن الحياه تلوّث بلون الدم، ولم ينج من ظلم التتار أحد حتى محمد، صلى الله عليه وآله وسلّم، الذي هو رمز المجد والعظمه في الإسلام، فقد تمّ حرقه بواسطة التتار الذين هم رمز للشر والموت والجذب؛ والمقصود من حرق محمد، حرق معالم دينه.

الموت في الشوارع
والعقم في المزارع
وكل ما نجبه يموت
الماء قيدوه في البيوت...

هم التتار أقبلوا... محمد اليتيم أحرقوه ... (المصدر نفسه: ٢٥٠)

فالسّياب في هذه القصيدة على يقين بأنه ومحمدا سيصلبان غدا في العراق، وسيعمّ الظلام من جرّائه جميع الأنحاء، وسيموت النهار.
 محمد النبي في "حراء" قيده
 فسمّر النهار حيث سمروه
 غدا سيصلب المسيح في العراق
 ستأكل الكلاب من دم البراق (المصدر نفسه: ٢٥٠-٢٥١)

وعلى كلّ حال، فمن خلال النظره الموضوعيه إلى هذه القصيدة يتبيّن للمتلقّي أنّ الشعب العراقي في ظروف كهذه يتطلّع إلى نائل فدايٍّ مجاهد كالمسيح، يُخلّصه من الأوضاع الاجتماعيه والسياسيه المتدهوره؛ فتوره ١٤ من تموز سنه ١٩٥٨م، وإن فتحت في قلوب أبناء العراق نافذه أمل في التخلص من المحن والكروب، ولكن لم تلبث هذه الثوره حتّى حادت عن طريق الحق والصواب وقضت على آمال الشعب العراقي بالكامل. (حداد، ١٩٩٨م: ١٣٠-١٣٢) فلذا نرى السّياب في هذه القصيدة والذي يمثّل شعبه في قضاياها نراه خائبا من تحقيق أيّ لون من ألوان البعث والنشور.

النتيجه

توصّلت هذه الدرّاسه إلى أنّ الأوضاع السياسيّه القائمّه، والظروف المأساويه المتدهوره، وتخلّف الشعوب العربيّه ثقافيا واجتماعيا، إلى جانب الدوافع الفنيّه كلّ ذلك أدى إلى أن يلجأ شاعر كالسيّاب في التعبير عن عواطفه وأفكاره إلى الرمز والقناع. وقد اتّخذ الشاعر قناع المسيح على أساس نظره النصاري للمسيح - أده طبعه لاستعراض فكرته عن الميلاد الجديد والتضحيه. وبالاعتماد على الجوانب الدراميه المختلفه التي يخلقها القناع عبّر الشاعر عن تجربته الشعريّه الذاتيه بصوره موضوعيه وعامّه. ومن جانب آخر، وبالاستناد على الخصائص العامّه للسيد المسيح والذي يعتبر كنموذج تراثي معروف بالمنجيّ والفدائيّ في اللاوعي الإنساني، صيّر السيّاب كلامه قنطره جمعت بين جميع أفراد البشر، بحيث أصبحت المحن والآلام التي تجرّع مرارتها الإنسان العربيّ محنا وآلاما لجميع الناس في العصور المختلفه. وفنّيّا نجح الشاعر في استثمار المبادئ الدراميه والأصول الفنيّه لشعر القناع. ومن النماذج على ذلك إقامه علاقات تناصيه متعدده، والإفاده من الرمز، وتصوير الصراعات القائمّه بين الأمور المتضاده،

واستدعاء الشخصيات والتماهی بها، وإقامه علاقات ناجحه بين أحداث حياه المسيح وتجربه الشاعر المعاصره. ومن أهم إبداعات الشاعر في هذا المجال توظيف شخصيه المسيح بصورتين متناقضتين: أى القناع المتوازی والقناع العكسی؛ فالقناع المتوازی يعتمد عليه الشاعر للتعبير عن معانی التضحية والفداء في سبيل نهضه شعبه، ودفعه للقيام بواجباته والتحرر من قيود العبوديه والذل، والتطلع إلى مستقبل زاهر حر، والتأكيد على أن المشقات والمحن ستعطى ثمارها عما قريب؛ فلذا نجده يصور نفسه عن طريق الأسطوره والرمز وكأنه وجود بنفسه، فيربط مصيره ومصير الشعب بمصير المسيح ويرجو من خلال هذه التضحية المتسمه بطابع الشهاده أن يهبى الأرضيه لتحرر الإنسان. وأما التوظيف العكسی، فيلجأ إليه الشاعر عندما يشعر بخيبه الأمل من التغلب على المحن الفرديه والمشاكل الاجتماعيه والسياسيه، فتتحول عنده أسطوره الانتصار إلى رمز الخساره والفشل، وتتجلى ديالكتيكيه الإخفاء والإظهار، الإخفاء في التعبير العكسی والإظهار في الاستلهام من الأسطوره، الأمر الذي يرفع من مستوى الصراع الدرامي الشعري ويؤدى في النهايه إلى شعر متطور يؤثر تأثيرا بليغا على المتلقى وينفذ إلى صميم قلبه.

التعليقات

١. إله الحب والجمال عند الرومان. هي أفروديت اليونان، وعشروت الفينيقيين. (المنجد في الأعلام، ص ٤٢٨)
٢. إله الخصب عند البابليين. هو أدونيس الفينيقيين، قتله خنزير برى، فبعثته عشروت من الموت وأحبته. (المصدر نفسه، ص ١٨٠ و ٣٢)
٣. ملك خرافى في الأساطير اليونانيه. مؤسس مدينه كورنتس. اشتهر بالمكر والدهاء. حكم عليه في الجحيم بعذاب أبدى قائم على دفع صخره من أسفل الجبل إلى أعلاه، حتى إذا بلغ القمه تدرجت الصخره إلى أسفل وكان عليه معاوده العمل مجددا. (المنجد في الأعلام، ص ٣٢١)
٤. الاسترجاع بمعنى الرجوع إلى الماضى واستحضار الأحداث فجأه، ولا بد أن يكون هذا الرجوع بمثابة قطره تربط المشهد الرئيس بالمشهد الماضى. وقد انتقل هذا المصطلح من السينما إلى النتاجات الأدبيه، فبالرجوع إلى الماضى يختل التسلسل الزمانى للقصه ويتابع القارىء القصه وهى مزيج من الزمن الماضى بالحال. (ميرصادقى، ١٣٨٩ش: ٣٩٣-٣٩٤)

۵. إله النار في الميثولوجيا اليونانية. مؤسس الحضارة الإنسانية. اختطف النار المقدسه من السماء ونقلها إلى البشر، فعاقبه زفس وقيدته على جبل القوقاس، حيث كان ينهش كبده المتجدده باستمرار عقاب كاسر. (المنجد في الأعلام، ص ۱۲۵)

۶. عبارته "كسيح كسيح وما من مسيح" مأخوذه من معلقه توفيق صايغ (السياب، ۲۰۰۰: ۳۵۷ في الهامش)

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

إنجيل متى. لاتا. دار الكتاب المقدس في العالم العربي.

أبوغالي، مختار علي. ۲۰۰۶م. الأسطورة المحورية في الشعر العربي المعاصر. الطبعة الأولى. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

أرناؤوط، عبداللطيف. ۲۰۰۴م. عبد الوهاب البياتي - رحله الشعر والحياه - الطبعة الأولى. بيروت: مؤسسه المنار.

إسماعيل، عز الدين. ۱۹۸۸م. الشعر العربي المعاصر "قضايا وظواهره الفنيّه والمعنويّه". الطبعة الخامسة. بيروت: دار العودة.

البطل، علي عبدالمعطي. ۱۹۸۲م. الرمز الأسطوري في شعر بدر شاكر السياب. الطبعة الأولى. الكويت: شركة الربيعان للنشر والتوزيع.

بلاطه، عيسى. ۱۹۷۱م. بدر شاكر السياب "حياته وشعره". الطبعة الأولى. بيروت: دار النهار للنشر.

البياتي، عبد الوهاب. ۱۹۹۳م. تجرّبتى الشعريّه. الطبعة الثالثة. بيروت: المؤسسه العربيّه للدراسات والنشر.

بيضون، حيدر توفيق. ۱۹۹۱م. بدر شاكر السياب رائد الشعر العربي الحديث. الطبعة الأولى. بيروت: دار الكتب العلميّه.

جعفر، محمد راضي. ۱۹۹۹م. الاغتراب في الشعر العراقي المعاصر "مرحلة الرواد". الطبعة الأولى. دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب.

الجيوسي، سلمى الخضراء. ۲۰۰۱م. الإتجاهات والحركات في الشعر العربي الحديث. الترجمة: عبدالواحد لؤلؤه. الطبعة الأولى. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربيّه.

حداد، علي. ۱۹۹۸م. بدر شاكر السياب "قراءه أخرى" الطبعة الأولى. عمان: دار أسامه للنشر والتوزيع.

الحلاوي، يوسف. ۱۹۹۴م. الأسطورة في الشعر العربي المعاصر. الطبعة الأولى. بيروت: دار الآداب.

- خشیمه، کمیل اسکندر، وآخرون. ۱۹۹۷م. المنجد فی الأعلام. بیروت: دار المشرق.
- داد، سیما. ۱۳۸۰هـ.ش. فرهنگ اصطلاحات ادبی. الطبعة الرابعة. تهران: دار مروارید للنشر.
- رجایی، نجمه. ۱۳۸۱هـ.ش. اسطوره های رهایی "تحلیلی روانشناسانه بر اسطوره در شعر عربی معاصر" الطبعة الأولى. مشهد: انتشارات جامعه فردوسی بمشهد.
- السیاب، بدرشاکر. ۲۰۰۰م. الأعمال الشعریه الکامله. الطبعة الثالثة. بغداد: دارالحریه للطباعة والنشر.
- الضواوی، أحمد عرفات. ۱۳۸۴هـ.ش. کارکرد سنت در شعر معاصر عرب. الترجمة سید حسین سیدی. الطبعة الأولى. مشهد: مؤسسه جامعه فردوسی للنشر.
- عباس، إحسان. ۱۹۷۸م. اتجاهات الشعر العربی المعاصر. الطبعة الأولى. الكويت: المجلس الوطنی للثقافه والفنون والآداب.
- عشری زاید، علی. ۲۰۰۶م. استدعاء الشخصیات التراثیه فی الشعر العربی المعاصر. الطبعة الأولى. القاهرة: دارغریب.
- علی، عبدالرضا. ۱۹۸۴م. الأسطوره فی شعر السیاب. الطبعة الثانية. بیروت: دار الراشد العربی.
- علی، عبدالرضا. ۱۹۹۵م. دراسات فی الشعر العربی المعاصر "القناع، التولیف، الأصول". الطبعة الأولى. بیروت: المؤسسه العربیه للدراسات والنشر.
- فتیحی، ابراهیم. ۱۹۸۶م. معجم المصطلحات الأدبیه. الطبعة الأولى. بیروت: المؤسسه العربیه للدراسات والنشر.
- فتوح أحمد، محمد. ۱۹۷۷م. الرمز والرمزیه فی الشعر العربی المعاصر. الطبعة الأولى. القاهرة: دارالمعارف.
- کندی، علی. ۲۰۰۳م. الرمز والقناع فی الشعر العربی الحدیث. الطبعة الأولى. بیروت: دار الكتاب الجدید المتحدہ.
- الموسی، خلیل. ۱۹۹۱م. الحدائنه فی حركه الشعر العربی المعاصر. الطبعة الأولى. دمشق: مطبعه الجمهوریه.
- الموسی، خلیل. ۲۰۰۳م. بنیه القصیده العربیه المعاصره. الطبعة الأولى. دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب.
- میرصادقی، جمال. ۱۳۸۹ش. راهنمای رمان نویسی. الطبعة الأولى. تهران: انتشارات سخن.
- النهوم، الصادق. ۲۰۰۲م. الذی یأتی ولا یأتی. الطبعة الأولى. بیروت: مؤسسه الانتشار العربی.
- المجلات:
- عباسی، حبیب الله. ۱۳۸۵هـ.ش. کارکرد تقاب در شعر همراه با تحلیل دو تقاب در شعر م. سرشک. مجله کلیه الآداب والعلوم الإنسانیه بجامعه فردوسی. العدد الثاني والخمسون بعد المائة. صص ۱۵۵-۱۷۳.